بـ «الكرامة الوطنية» التي افتقدوها لمدة طويلة. وعبارة عبدالناصر «ارفع رأسك يا أخي» أوضحت أنه أحسّ بفرادة دوره في تاريخ مصر، وأدرك بوعي مغزى هذا الدور. وهذا ما بدا واضحاً، ليس فقط في خطابه السياسي، بل وأيضاً في ردود أفعاله على مواقف الغرب والشرق على حدّ سواء. من ذلك مثلاً، ردّ فعله على رسالة التهديد الشهيرة التي تلقاها من وزير الخارجية الاميركي، جون فوستر دالاس، والتي حذّره فيها من العواقب الوخيمة لتأميم مصر قناة السويس. وكانت لهجة الرسالة، فضلاً عن التهديد الذي تضمنته، «جارحة للكرامة المصرية»[٢٨]. فقد ردّ عبدالناصر على تهديد دالاس في خطاب التأميم في الاسكندرية بتاريخ ٢٦ من تموز (يوليو) من العام ١٩٥٦، قائلاً: «لقد ولّى الزمن الذي كانت فيه سياسة مصر تُملى من الخارج. وولّى العصر الذي كان فيه تهديد تافه يطيح بالحكومة في القاهرة». كما أن تحالف عبدالناصر مع السوفيات لم يمنعه من مخاطبة الرئيس السوفياتي، آنذاك، نيكيتا خروتشوف في احدى المناسبات، بالقول: «لولا مواقف مصر لكانت القاهرة قاعدة للصواريخ تُضرب منها موسكو»[٢٩].

فضلاً عن هذا الجانب المعنوي الهام في نزوع عبدالناصر نحو سياسة مستقلة، «فإن الخصائص الفردية التي تميّزت بها شخصيته توافقت مع ظروف تاريخية مؤاتية وفّرت له الفرصة ليكون البطل الذي احتاجه المصريون في منتصف هذا القرن»[٣٠]. وجاءت سياساته العملية، على الرغم من سلبياتها العديدة لتقود مصر في قفزات نوعية هائلة في خلال فترة زمنية وجيزة. فقد قضى على النظام السياسي القديم ومخلفاته أيضاً. ووجّه ضربة لنخبة ملاك الارض، وقام بالاصلاح الزراعي. كما أرغم البريطانيين على توقيع اتفاقية الجلاء، واتخذ خطوة تأميم قناة السويس رغم المخاطر والتهديدات. ورفض الشروط الاميركية للمساعدة في بناء السد العالي، واتجه، في المقابل نحو الانفتاح على المعسكر الاشتراكي. وأوجد قاعدة مادية لتصنيع مصر، ممّا أسهم في تحويل المجتمع المصري، ومهّد لظهور طبقات اجتماعية، وسياسية جديدة. ومن منجزاته على الصعيد الدولي، دوره البارز في تأسيس منظومة دول عدم الانحياز، وقد مكّن ذلك مصر من احتلال مكانة متميّزة ليس في العالم العربي فحسب، بل وفي آسيا وافريقيا، بحيث أصبحت السيادة الوطنية لمصر ترمز الى سيادة الدول النامية على مقدراتها، وصار عبدالناصر رمزاً لاستقلالية قرارها.

ويمكن القول أن ملاءمة رسالة عبدالناصر العربية لأزمة الهوية عند المصريين، تنطبق الى حدّ كبير على باقي الشعوب العربية. فهذه الشعوب رزحت تحت نير العثمانيين لحوالى خمسمئة عام. ثم ومع انهيار الدولة العثمانية، في مطلع القرن العشرين، تطلّعت هذه الشعوب الى الاستقلال والوحدة، لكنها بدلاً من ذلك وقعت تحت سيطرة الانتدابين البريطاني والفرنسي حتى نهاية عقد الاربعينات. وقد أسهمت السيطرة الاستعمارية الجديدة في تعميق احساس العرب بأزمة الهوية. من هنا، جاءت الدعوة الناصرية الى الوحدة العربية ابّان عقدي الخمسينات والستينات، لتلبي مشاعر الجماهير العربية فيما كانت المنطقة تمر بمرحلة بالغة التعقيد، تمثّلت في ضياع الهوية العربية لفلسطين من جانب، والاستقلال الشكلي الذي حصلت عليه الاقطار العربية الاخرى من جانب آخر.

وحتى بلدان المغرب العربي، التي لم تكن قد وقعت تحت الهيمنة المباشرة للعثمانيين، فإنها هي الاخرى تجاوبت مع الدعوة تأكيداً على هويتها الحضارية، العربية ـ الاسلامية، في مواجهة محاولات «الفرنسة»، خاصة في الجزائر.

في ظل هذا الاحباط الذي ساد المنطقة في مطلع عقد الخمسينات، رأت الجماهير العربية